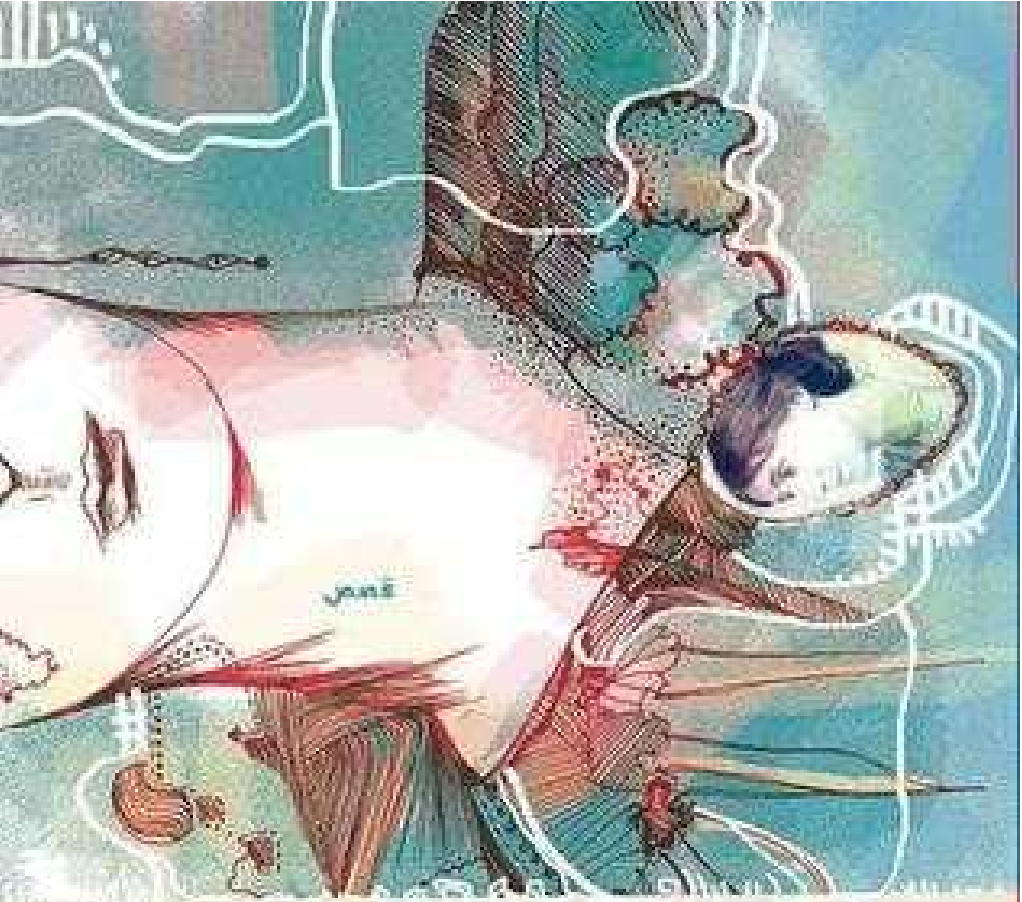

مائدة واحدة للمحبَّة

أريج جمال

مائدة واحدة للمحبة

قصص

أريج جمال

جمال، أريج

مائدة واحدة للمحبة/ أريج جمال

روافد للنشر والتوزيع. 2014 ط 1، القاهرة

88 ص ؛ 21 سم

1 -قصص

2 -العنوان

أ – المؤلف

رقم التصنيف: 01. 813

رقم الإيداع 2014/13572

الترقيم الدولي 6- 051- 751 -978-977- :I.S.B.N.

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: غادة خليفة

الإخراج الداخلي: أحمد عبد المقصود

حكاية اللوْح الزجاجي
الذي يطلع للبنت من المنام

بالضبط، لا تذكر متىٰ صار اللوح الزجاجي يلازمها في الوجود، وجودها.. لكنها بالنَفَسْ تذكر متىٰ جاء لها، بِكرًا، في المنام.. فتحوَّل من بعد كل شيء.

تلك الليلة، أرَّقها القلق، ودَّت أن ترسم علىٰ الجدار العظيم الفارغ، قبالة فراشها، وجه الحبيب، كانت تدري أكثر من أي أحد، أن الحبيب هو الذي نحبه فيغيب، أحسَّت أن الوجه لو تجلَّىٰ، سيكون الحبيب هنا، معها ولو غصبًا عنه، سيرىٰ عُريها الجسدي والنفسي كل الأوقات، لم تكن تفهم، في الواقع، إلىٰ الآن لا تفهم أنها تهديه شيئًا أكبر من قدرته علىٰ الاحتفاظ بالأشياء.. الجميلة.

جرَّبت أن ترسم، وضعت الخط الأول الذي يلامس حدود الوجه، هذا القوس الذي يمثل ذقنه، مسَّدت العينين، ثم حاولت أن تضع هذا الفراق بين السنَّتين الأماميتين، والابتسامة الخبيثة التي خذلتها هذا اليوم البعيد، بقىٰ الأنف، فقبَّلته، وحين بدا أن كل شيء اكتمل، وتراجعت برجليها خطوتين للوراء ونظرت، لقاها وجه آخر، وجه كبير، حاضر، لكن ليس وجهه، هو بالذات.

إن ذاكرتها تسرِّب ملامحه، كما يسرِّب الآن القلم الذي رسمت به، حبره، كل شيء قابل للفقد، حتىٰ وجهه.. انكفأت أمام الرسم الغريب، علىٰ عُري أمنياتها، وقعدت تنتحب، لاحظت أن رئتها لم تعد تجاري بالضبط الجذبات المفاجئة للأوكسجين، وأنها تلعثمت معها،

حتىٰ كادت أن تغرق في تلاطم مسارات الهواء حولها، هذا الهواء الافظ ككل أحد. نامت علىٰ جلستها تلك، فجاء، سار بمحاذاتها علىٰ البحر، كان صوته طيّبًا أكثر من صوت جدها الذي ينسىٰ دائمًا وهو يناديها، اسمها، قال لها اللوح "أنت وحيدة أكثر مما ينبغي" وصُوَّر لها أنه ضمَّها، فتحت عينيها فرأت الوجه إيَّاه، قابعًا يتلصَّص علىٰ وضعيات نومها الجنينية.

مسحته، وفتحت شبَّاكها، كي يأتي صبح، كانت نسيت اللوح الزجاجي وكلماته، احتاجت أسبوعًا كاملاً كي تدرك أن زياراته صارت مستديمة، وأنه يقول لها أشياء كثيرة عنها (كأهمية أن تتجمل للذات كل يوم، كالمقطوعات الموسيقية الرائعة التي لا ينبغي أن تفوتها، كتكنيك التقبيل الذي لم تختبره بعد، وكيف تتمكَّن من إخفاء هذه الندبة الظاهرة في الروح..) ، لا يشغلها اللوح وحكاياته، قدر ما تشغلها الحسرة التي تأكل كبدها، حين تروح عينيها إلىٰ الجدار، وترىٰ خيبتها، في رسم وجه الحبيب، الذي أمسىٰ الآن غائبًا جدًا، أكثر مما ينبغي.. انتظرت أن تمرّ الأيام، الفارغة، كي تعتاد هذا الفراغ، وهذه الحسرة فلا يعود الألم ينزفها. ثم حدث أن ظهر وجه آخر، يحبها ولا يغيب، وجه لا ترسمه كي يكون هنا، لأنه هنا كل الوقت.. انقطعت زيارات اللوح، هذه الليالي، وانقطعت هي عن انتظاره.. وكان أن ألفت الذات تحاول، علىٰ الجدار العظيم الفارغ، إلا من بعض تشوهات، قبالة فراشها، أن ترسم الوجه الآخر.

سقط القلم، انشطر، وتبعثر دمه، هي التي طاردت المُثل، واحتمت من لذة الذنوب كلها، تمارس شيئًا بشعًا اسمه الخيانة، أولو كان الحبيب غائبًا، تخون.. أولو كان خائنًا تخون.. بحثت عن بعض حبات من الفحم في البيت، ولم تجد.. في منتصف الليل، مشت بوجه مغبَّر، وشعر مشعث في الطرقات، كي تشتري الفحم، هذه الحبات السوداء التي لها مقدرة على محو الوجوه، وتسويد فراغ الجدارن المُغوي.. رجع اللوح ليلتها، قال "أنت لم تزلي وحيدة جدًا.. ابتسم كثيرًا لها، ثم ارتطم بالجدار المتفحِّم، فتهشَّم، وتبعثرت أشلاؤه، حين فتحت العين، كان اللوح قد حصل أخيرًا على طريقة تمكِّنه من المكوث إلى جانبها كل الوقت، كان مجال رؤية عينيها مشبَّعًا بحوافه الصغيرة، لكن من دون أن تجرحها، استطابت الصُحبة، خاصة حين أثبت صاحب الوجه الثاني، أن الحبيب هو الذي نحبه فيغيب، وغاب هو الآخر.

في هذا الزمن بالتحديد، كان اللوح يراقصها في الدُنى الأخرى، ويدرِّبها في أوقات الراحة على أشياء رائعة (الاستماع إلى أغنيات إيديث بياف، محبة النمل لأنه دؤوب ومخلص للغاية، تزيين غرفتها بالشمع، أشار اللوح له بالذات لأنه قادر على إشاعة النور في الروح، سكت ريثما تبتسم ثم أضاف أكثر من الشمس.) كف اللوح عن الحديث عن الوحدة، كف عن البوح لها عنها، كانت مشغولة بأهم، اشترت كل أسطوانات إيديث بياف، ليلاً أيضًا، بوجه سوي وبشعر

مُرسل من غير تهذيب، عادت تحملها كما لأم، وقضت الليل، تطارد نبرات الصوت الحنون، حين تشتعل بالحب، وتنتشي باللقاء.. طاردت شيئًا آخر، سؤال قديم عن العشق والعشاق.. مع اللوح وضعت قُبلة على رأس إيديث بياف، وصارحته "ما الحب.. إن لم يكن لقاء ولهفة، ورجفة.؟ ما الحب ؟" فهم اللوح مقصدها، فراقصها مرة أخرى، ثم صارت له أجنحة، حلَّق بها معها دون أن يتحدث عن الحب.

حين امتلأت تمامًا بصوت إيديث بياف، وبجولاتها المرحة مع اللوح، حين نست تمامًا الجدار، والغرفة، واستعاضت بالشمع عن الشمس، عاد الوجه الثاني، هاتفها في الليل، وعيناها مغمضة، سرق الأذن وكانت تسقيها إيديث قال أفتقدك جدًا.. أنا وحيد بدونك" كانت نملة كبيرة تتسلَّق التشوَّه الفحمي أمامها، ومع أن السواد كان كالحًا رأتها، نظرت لها النملة، كأنها تقول شيئًا ثم استدارت.. لم تتكلم لكن الصوت الآخر فعل ألا توقفين هذه الأسطوانة.. الصوت يحرق أذني" أغلقت الهاتف، بحثت عن النملة، كانت قد اختفت.. ثم انقطع اللوح هذه الأيام انقطع تمامًا، عادت الوحدة، وعاد السأم، كان صاحب الوجه المتفحِّم ينتظر رجوعها، لكن كلامه عن إيديث جرحها..

لم تتودد إلى رجوعه، ودَّت لو فعلت لكنها عجزت.. تركته يذهب، كما تركها ذات زمن.. رتَّبت الشمع، وفي الليل اشترت

أسطوانات موسيقية جديدة لفيفالدي، من متجر قريب لا يبيع إلا لها.. أخذت ترش السكر بانتظام على الأرضية، وتعد حبيباته وهي تضعها في جيوب الحيطان، أرادت أن يأتي النمل، لأنه دؤوب ومخلص للغاية، ولأن اللوح قال ذلك آه اللوح، ربما أن الزيارات انقطعت في المنامات، لكن حوافه لم تزل حاضرة في العين، تراها بالذات، في مكث الآخرين، ومزاحهم، في مرورهم الأحمق على روحها، هذا الحمق الأليف والحبيب، الذي يخدِّر نز الندبة، ثم حدث أن عاد صوت الوجه الأول، كان ليل، نامته مبكرًا، حين فزعت على الهاتف يرتجف، وهو يمرِّر لها نبراته.

سرى الشلل في أصابعها، والنملة تنظرها من بعيد، أحبت لو تستدير النملة، وينتهي الشلل، لو تدب حياة تحتاجها الآن.. الآن، لكن النملة لم تستدر، ولا ارتجاف الهاتف، خف.. أسدلت جفنيها على غياب حواف اللوح الزجاجي، منعت عن ندبتها، عتاب النمل، ونامت.. نامت كما لو أنها لم تنم منذ كانت جنين صغير في رحم عظيم. في الصباح، رأت الجدار مبيض تمامًا، لا وجه مسَّه، ولا هو مسَّ وجه.. ضغطت بهدوء على زر الهاتف، فمات موتًا رحيمًا.. فتحت الشبَّاك، وعقلها يزيح غيام الليل، عن المشاهد الأخيرة في المنام، لم يحضر اللوح، لكن النملة، التي لم تستدر ظلت تنظرها، تحوَّل العتب، إلى مساءلة، والمساءلة إلى سلوى.. والسلوى إلى حنين، استدارت

البنت، وحين عادت بالعين، الخالية من حواف اللوح، إلى الجدار، لمحت لقطة نهائية، للنملة، وهي تُسقط من العين مطر قليل يطبّب، يمسح الحائط كله.

حمَّمت جسدها بماء دافيء، وبنقطتين من عطر اللافندر، هدية متجرها وفاءًا لوفائها الليلي، فعلت على رشفات متباعدة من صوت إيديث.. نشفت ثنياتها، ومنحنياتها، وجففت بالذات، الندبة الظاهرة في الروح، ثم استلقت فوق الفراش، وسافرت عيناها إلى اللوح الزجاجي المزروع في الشبّاك ونادته قالت : "أنا وحيدة أكثر مما ينبغي

.. وجاء .

الذين سلِمُوا من كل شيء

حين التقينا، في الزمن الأول، كانت تشبه إيديث بياف، ثم حين توقفْنا عن التلاقي أدركتُ أنها لم تكن تشبه إلا سلمى

أكتب كي أدوِّن كل التفاصيل، كي لا تعذبني أكثر، ومن أجل أن تحضر.. كانت سلمى، وكنت سلمى أخرى. بيننا أشياء كثيرة تشبهنا في العمق، نقول مثلاً لبعض، بذات الصوت "تبدين كقرين من زمن آخر لا أقول أني أراها إيديث بياف، لكني من الآن، سأحفظها في روحي كما أحفظ صوت إيديث. وحين أمد يدي إليها، وأمُسَّ أناملها، وأرتعش.. ثم كنوع من الكذب أبتسم، أفهم أن شيئًا أكبر مني ومنها ومن إيديث بياف، يهز الأرض أسفل أقدامنا حين نكون معًا، وأن هذا الشيء بالذات أيامه في بطن هذه الأرض قليلة جدًا، وذائبة.

كم مرة التقينا، تعاتبنا، تمازحنا وفي أي زمن! لم يبقَ من سلمى، إلا اسمي، ووجه يطل بين حين وآخر، يذكّرني بهذه الابتسامة المتلعثمة على شفتيّ، ساعة كان حكيها حيًا جواري. لا سراب لا حلم جرَّبتُ مرة أن أقول "أحبك جدًا" كما كنت أقول "أمي"، لكنها هزأت. تحدَّثتُ عن أن هذه أحاديث بين الأحبة، وخجلت أن أقول أنّا كنّا نشبه ذلك وأن ذلك ليس عيبًا، ولا ينبغي أن يكون. ثم كان. أخذت أستعمل الكلمة الفرنسية "Je t'aime" حتى صارحتني ذات يوم "لم يعد في هاتفي مكان لاستقبال رسائل جديدة يا سلمى"

في "الآمريكين" قبل ذلك بزمن، تحدَّثنا عن انتظارات الهاتف الطويلة لأحد لا يأتي، كانت تدخِّن التبغ، وكنت أدخِّن صوتها، وعينها الواثقة، التي تحدِّق فيّ كثيرًا وتقول أشياء لا أفهمها لكني أبتسم. نطلب عصير مانجو من الجرسون، وحين يأتي حاملاً طلبنا، نخبره أن اسمنا واحد "سلمىٰ" قُلت: "أَسْمَتْني أمي سلمىٰ لأنها أرادت أن أسلم من كل شيء" تبتسم، وتقول لي أن الشاشة الافتراضية رسمتني لديها كسيرة.. صغيرة جدًا ومخذولة، وأنا لست كذلك. فأشرح أن الخُذلان لم يخذل اسمي بعدٌ، وأن الوقت لا يزيد هشاشة المرء إنما يصلبه، والمسيح في روايتنا سيعيش بعد الصلب.. ويصمد.

متىٰ كان عليّ أن أسكت عنكِ، وأتركك تبحثين عن أشيائك المفقودة في الأفق البعيد جدًا، وحدكِ، كما ترغبين.. كم نظرة كان ينبغي أن أبعثها لبائع الجرائد، الذي كنّا بوضوح نراه في جلستنا من الحاجز الزجاجي، كي أستعيده بصفاء أكثر يوم سأتمثله افتراضيًا، علىٰ الشاشة الافتراضية، بجانب نافذتك المخضرة، التي تصر علىٰ مقاطعتي، كما لو أني خطئية اُقترِفت في العتمة. أنا الدليل الوحيد علىٰ أن الوقت لم يكن عتمة يا سلمىٰ. والآن هي نافذتك مخضرة وأنا أرضي جدباء. ولم أزل أبتسمٌ. أقاوم وهن أعصابي، كي أكتب، سأرتاح حين أكتبك كاملة، ولذلك أفعل. حين للزمن الثاني طلبنا "ميلك شيك شيكولاتة"، خاطبنا الجرسون بحمق لا نظير له، "قل يا

سلمىٰ..."، فقال، وجاوبنا، سويًا "أنا" ضحكنا وابتسم الجرسون، وبائع الجرائد، وابتسم المسيح فوق الصليب.

تغيبين يا سلمىٰ، وأعرف أنكِ لا تشبهين إيديث بياف، إلا في الحاجبين الرفيعين، وحضورها الملائكي، تنفثين دخانك، فيحاصرني، وأحب أنه يحاصرني. أحب أن أحكي.. بالذات عن صوت العربات في الخارج، العربات التي لا تبالي بنا، وبسعادتنا، وبغروبنا القادم بثبات راسخ، كمحبتي لصوت إيديث بياف، وحزني لأني نسيت صوتك، لأن الكتابة لا يمكن أن تردَّه لي، ولا أنت ستفعلين. أتلصَّص يا سلمىٰ، علىٰ أنك سالمة تمامًا في بيتك الافتراضي، أتلصَّص علىٰ طردي النهائي، والأخير، وأبتسم، ربما لأن لا شيئ آخر يمكنني أن أفعله.

حاجباك فقط يشبهان إيديث بياف، فلمَ أردِّدها بغباء"Je t'aime" كان قلبك حقيبة بسكويت، عاهدني أن يحفظني كطفل. البسكويت لن يقرأ قصتي، ولن يمزِّق سطورها لأنه سيعرف أنها عنه، بسكويتك حلو يا سلمىٰ، وأنت تتحدثين عن الوحدة، وعن الوطن الذي ينتظر الخلاص، ونرفع رؤوسنا إلىٰ السماء، ونحلم، ويحلو الابتسام فنبستم. لا شيء أجمل كان يمكن أن يحدث حينها وبسكويتي بين يديك، آمن عليه، وأفهم أنه سيسلم عندك، ألست أنت أيضًا سلمىٰ. الآن حين تنطفي نافذتك، ينطفي شيء في الروح، شيء منطفيء أصلاً، وقديم.. ومنسي، كمذاق المانجو والشيكولاتة، كالمحبة المتسرِبة.

إنني أكتب قصة وحيدة جدًا، يا سلمى، وحيدة ومصلوبة، وأعرف أنكِ ستوبخينني كثيرًا حين تقرأينها، لأني كتبت أحبك فيها أكثر من عشر مرَّات، وأندهش لأنك تُحصِّينها وأنا لا أجيد الإحصاء، فقط، أتحدث فيسقط حبري، كما لو بمجانية. سأعتذر كي أُرضيكِ، كي لا تذهبين. وكي تتفرَّق تفاصيل قليلة، تحاول أن تنجو من هوس استبقاءات عقلي الخائب أتدرين يا سلمى.. إنك لا تشبهين إيديث بياف، وأنا أمْتَنّ كثيرًا لذلك. وأبتسم جدًا، لأنكِ لا تقرأين كتاباتي.

المشَهدُ

في المنام، حين رأته رمت السيجارة من يدها، وكان يقترب.

على عتبة السابعة، يستدرجها النهار، إلى الخارج، وتذهب مع غوايته، تشب وتحاول بكفيها أن تقبض على هذا الشيء الحارق الذي يقولون له الشمس، تغني الآن بالذات داليدا، أغنية عن العصافير، فتنتبه التي ربما لم تتم السابعة كلها، إلى طائر صغير يقف على إطار الشباك، يهدأ صخب مطاردات القرص الأصفر، لصالح حضور هذا الأليف الجميل، يعجبها ريشه، اللون الذي لا تعرف الآن اسمه؛ فتقترب متحركة على أطراف أصابعها، كراقصي الباليه، تبتسم والطائر ينتشي، يتلفت؛ فتستدير إلى الداخل لثوانٍ، فقط كي تتأكد أن داليدا لم تزل تتكلم، ثم تؤوب إليه مرة أخرى، في النظرة الثانية تدرك، أن الطير عارٍ، عارٍ تمامًا، وأنه جميل للغاية، وسعيد، لأنه عارٍ ولأنه يتلفت. شيء يشبه الدهشة، التي لا يعرفها كل الكبار، يخطف التي لم تتم السابعة كلها، أو ربما أتمتها، فتقرِّر في هذا الزمن تحديدًا أن تحاكي العصفور. وحين تبدأ خلع الأثواب الصغيرة التي ألبسوها إياها، يفزع العصفور الصغير، ويسافر في اتجاه الشمس، التي تؤذي عين الصغيرة، ولا تؤذيه هو، لا تفهم لِمَ فقط تشاهده، ثم تغمض عينيها بقوة، كأنها تتأكد من وجودها، وهي تستكمل عريها الذي صار الآن حبيبًا.. وعلى الأنغام الأخيرة لأغنية داليدا، تمارس التلفت لأول مرة.

لعب الوقت بالأعوام السبعة، فزادها أكثر من سبعة، ثم قصَّ بعض ريش العصفور، لمْ يعد بوسعه أن يتأكد من حضوره، ولو أغمض عينيه بقوة، آلاف المرَّات. هي الآن تُسْأَل إذا ما كانت سعيدة، ترتدي لونًا محدَّدًا يقولون له الأبيض، وتراه الآن باهتًا جدًا ومنافقًا، تهز رأسها في أي اتجاه، وتُخفِقُ في الابتسام، تود لو تسأل كيف يبتسمون. أو كيف يمكن أن تمسي سعيدة، وهذا المَشَدُّ السمج يعض نهديها، ويكاد يدميهما، تشعر أنها كانت بحاجة لشيء عظيم في السبعات الثلاث التي عاشتها، شيء كالكتابة مثلاً، ربما كي تسجل ألم صدرها في هذه اللحظة، التي ستفوت وتنساها، وتصبح من بعد امرأة جديدة، امرأة تنسى أن تنظر الشمس، بوقاحة تليق بأذاها. في تموُّجهم حولها، وأصواتهم المرحة، تحتفل بالريم، بهذه الطبقة الخفيفة التي تغطي مشروبها المفضل، تبدو الحياة، وهم يقولون لها "مبروك" طبقة خفيفة، لم تمس يومًا الروح.

(حين أتحرر من ذاتي، وأنا أتحمَّم، أكون طيّبة تمامًا، كما خلقني الله، وتأتي أنت، لا تكون الدُنى دُنى، نقف على قمة الكوكب، نربطه من قطبيه، بخيط رفيع جدًا، قصصناه من أثوابنا؛ وما عاد لها نفع. نلهو بالأرض، بالبشر، من بعيد نرى الله ونبتسم، ونُحييِّه، وأقول لك صار لدي شيء أكبر من الكتابة، وأجمل من العصافير، صار لدي أنت..)

رآها الأب وهي تتلفت عارية، ثم جُنّ، كانت صغيرة على كل شيء إلا على كفيّه الحديديتين، وصراخه المُفزِع، في الليل وأمها تُرضِعها تحنانًا تعويضيًا عن الصمت المتواطيء حين الجَلّد، قالت "العري عُهر، الله سيحبك أكثر لو لا يراكِ الناس"، ردَّت طفولتها "كيف سيحبني الله وهو لا يراني"، سكتت الأم، تنصتت على أقدام الأب، تأكدت أنها بعيدة، وتكلمت "لأن الله يرى قلوبنا يا ريم"، سكتت الأعين التي هدَّها البكاء، ونامت وهي تعاتب الله وتنتحب "كان قلبي طيبًا.. كان قلبي طيبًا" في المنام رأتْ داليدا عارية، أيضًا، حملتها على رِجلها، فرَّجتها ريشها، وراحت تغني لها.

"جدع إنت يا جميل الصورة

تردِّد أغنيتها الآن ، وهي تفكر كيف تتخلَّص من المَشَدّ ومتى. "صُبرت مالبداية وهصبر للنهاية.. الصبر عندي هواية وأنا وأنت والزمان" تمنح هذا الزمان ابتسامة، تدَّعي الحكمة، تشبه التي كانت تمنحها لراقصات الباليه. يرقصنَ لأنفسهن، لله، لا يرقصن للناس، هؤلاء الذين يشهدون احتفالاً كبيرًا بالريم، احتفالاً وحيدًا وتائهًا، كاسمها، كالأيام الكاذبات التي قضتها، تفكر كيف ستخلع هذا المشد البائس أمام رجل غريب، لم يكن يومًا رجلها، ولن يكون، كصوت الطبول الصاخب حولها، وهم يزُّفونها، هي لا تحب في الموسيقى، الطبول، ومن الآن ستكرهها جدًا، لكنها ستصمت وتبتلع كلامها لأن

الطبول وحدها ستتحدث كما تحب، ولأنها تعلمت منذ أزمان كيف تبتلع كل شيء. وستضحك أيضًا لأنها عروس، ولأنه حين يحل الليل سيدخلها أحد، وتدخله، وينبغي أن تكون سعيدة جدًا بذلك

"نور النهار خسارة..
والنسيم العليل
والشمس والحرارة..
والبهجة والنضارة..

(.. أنت لا تدري، أنا بنيت في الروح لك معبدًا، وحدّتك فيه، صليت كي أصلك، اخترت النزف بإخلاص، على الصليب الذي رسمته فوق صدري، وذهبت. طلبت من الله الصفح، كان ينبذني من رحمته، وكنت سعيدة، لا ينقصني شيئًا سوى محبتك..)

لا يصدِّق الله أن قلبها طيّبٌ، ولن يصدِّق، ربما لأنها هي لا تصدق؛ تطلب منه الغُفران كثيرًا على ذنوب لم ترتكبها، أو ارتكبتها، خيالاً وهي تطلب الكتابة، وتشاهد نفسها تخسرها، كما خسرته، وكسبت هذا المشد الوحشي، واللون الأبيض، والصدر الذي يعانقها الآن، يغازلها، ويقول بشبق أحبك؛ فيستحيل لون أذنيه للأحمر. تغمض عينيها بقوة فترى داليدا تجيء من آخر القاعة، عارية من كل شيء إلاَّها، تبتسم، ببصيرة الذي يعرف كل شيء، تقفز كل الوجوه، إلى

وجه داليدا، فتبتسم ريم أيضًا، والمشد العاض يُجبَر على نزع نابيه من نهديها، يفارقها، يرقصان سويًا وداليدا تغني، كراقصات الباليه العُراة.

"وقفنا في ألف مراية بالبدلة والفستان..
وهتنتهي الحكاية وإحنا ملناش مكان..

أخذت كل شيء دون أن تمد يدك، أو تبتسم، كنت أتسرب إليك، كما لو أني مثقوبة، مثقوبة بك، ممتلئة حتى بفراغك. سعيدة وأنا أمد يدي إليك، وأبتسم، وأحب أني أحبك، وأني لك.. أراني اليوم، لم أكن أحبك، كنت أقدِّسك؛ قدَّست أيضاً جسدي، قدَّست النهد، لأنه لك، وشفتيه، قدَّست الروح، وسماءها، قدَّست كل ما كان يُحتمل أن يصير من أجلك.. قدَّست كُلي، إلا أنا.

على الفراش يخلع المشد، خذلتها داليدا ولم تأتِ، خذلها العصفور وانسحب، لكن اليد "إياها" حضرت، وحيدة بزحامها، خلعت كل شيء في طريقها، صحرّت الجسد كله، وأصبحت ريم أخرى. بعدها ستبزغ سبعة تالية، وتصبح امرأة ثانية، يرتديها الأسود، ولا يترك سوى عينيها، يغطي كل ما يظهرنه راقصات الباليه، يغطي بالضبط الأشياء التي ينهبها صاحب الآذان المحمرة في الليل. تصير امرأة تتزوج بيتها، أثاثه وهندامه، امرأة لا تأتيها المنامات لأنها مشغولة جدًا بطبخ الطعام كل يوم. نسيت داليدا والعصفور، نسيت حتى أن ترثي الكتابة، تتفرَّغ تمامًا لسماع أحبك الكثيرة التي يلقيها عليها، وهو

يغترف من جسدها كل ليل، لم تكن أحبك بالضبط، كانت أحب هذا الشيء منك، توقف عن مناداتها ريم، فنسيت الاسم.

لكن، سيحدث ذات نهار شيء غريب، سيذكِّرها بالحبيب الذي فرَّط في نومته بجوارها وغادر، ستجد، وهي ترتِّب الفراش، واحدة من أحبك الكثيرة التي ينثرها عليها بإهمال صاحب اليد الشبِقة، واحدة صغيرة جدًا، مُعلقة بين الأرض، وإطار الفراش، ستحاول أن تُخلصها برفق، كي لا تتألم أكثر، ستذكر الأب وهو يمارس عنفه كاملاً معها، فتزيد إصرارًا على إنقاذ الغريبة، وستستجيب، سيحدث هذا فعلاً، وحين ستُخلِصها تمامًا، وترفع رأسها سترى داليدا، من غير أن تغمض عينيها بقوة، ستراها عارية، كما أتتها أول مرة، وستمتلي عيناها، بهذه الطبقة الندية التي يقولون لها الريم، ستساعدها داليدا في النهوض، وتفرِّجها ريشها هي، ريش الريم، ستعلمها أن تتعرَّى من غير شبابيك ولا طيور، أن يكون لها سر، لا ترميه على الأرض حين يقترب، فقط تخبئه في النهد، حتى يذهب، وتختلي بريم. ستبتسم ريم كثيرًا، لأنها ستفهم أن الله يحبها. سوف تمد داليدا يدها إليها، وسيرقصان سويًا، لأنفسهن ولا أحد. وسيعلو صوت داليدا وهي تنشد لها أغنيتها المفضلة، غير آبهة بالوجود كله.

"جدع انت يا جميل الصورة..

مائدة واحدة للمحبة

"مَنْ سار في اتجاه وجهه لن يُبعد كثيرًا..

من كتاب الأمير الصغير أنطوان دو سانت إكزوربي

كتبتُ كل ما جرىٰ بيننا من قبل أن يجري، ومن قبل حتىٰ الكتابة.

لم أترك شيئًا للدهشة، ولا للتساؤل. مأخوذة بالمس الذي خبَّرني عن وشوك لقائنا أتفرغ تمامًا للكتابة، أُعدِّل في وضع الصفحات آلاف المرات، وأنسج في الذهن صورتها كي لا أنسىٰ، أخاف من النسيان، ولا أخاف منها هي، حين ستأتي وأصافحها ستشعر بالألفة التي أحملها لها في دمي وربما صرنا نحن الغريبتين شقيقتين.

من بعيد كان صاحب العينين الخضراوين يمارس دأبًا معتادًا علىٰ مغازلتي، وهو يُحضِر قهوتي، وكنت جديدة مع القهوة قديمة في كل ما له علاقة بالغزل، منذ انتهينا انتهىٰ الغزل، صرت أواجهه بحدقتين خشبيتين، نصفهما لا مبالاة ونصفهما الآخر فضول لا يشبع لكسر الخشب. حين أحوِّل عيني عنه، وأمرِّر نظرات حانية علىٰ الكتابين في يدي أُجفل لثوانٍ وأقرِّر أن أنسىٰ ما سيجري بيننا، كما يليق.. بالأحبة ربما.

أنظر كثيرًا لأنف فرجينيا وولف علىٰ غلاف الكتاب، وأنا أتقصىٰ رائحة القهوة وأقول لم تزل أغنىٰ من طعمها. أنا الهامش من حياته المعتمة أنتظرها هي الكوكب الراسي في النور، كي تأتي وتتفرج عليّ

دون أن تعي أنه كان ثمَّة احتمال أن نكون غريمتين لو أن حكايتنا طال زمانها أكثر. وهي حين تدخل الآن وتُعطر الأجواء بعطر ربما تضعه له في الفراش، أكون أنا أعاني نوعًا صاخبًا من البرد في رِجليّ، كالذي أعانيه ساعة ما قبل النوم، أو كالذي تعانيه هي وجسدها جائع إلى جسده كي يلتقيان، وأقول أن ما بيننا انتهى وأبتسم لها كغريبة أليفة تحب صحبتها وتمقتها في آن.

قالت "هو المطر.." وفتحَتْ ذراعًا كان يُشكِّل ضمة، وهي تطلب الجلوس. وأذِنت. أحببت أن أشاهد التي كتبتُ عنها في لحظة جاهلية فبعثتها لحمًا كاملاً. أخذت أحرك ساقيّ وأفكر أن الكتابة اليوم هادئة، وأنها تدعني ألاحقها بسلام، هي أيضًا تُغير عادتها. ربما لا تحب القهوة لكننا حين سنتكلم وأرجوها برقة أن تقبل مشاركتي الشراب، تكون قد أسدت لي معروفًا وهي تُريني كيف تتناول الأشياء حين يتحدثان مثلاً.

انتهى كل شيء ذات يوم بعيد، أبعد من هذا بقليل، لكن هي الروح لم تزل تأمل في المحبة. تكَلمتْ وقالت عن كونها كاتبة عظيمة، وأنها أتت المدينة لأن ثمَّة احتفال كبير رسَّمه زوجها المُحب، وآذتني المحبة فابتسمت وهززت رأسًا أن أعرف، وكسرت خشبية عيني وأنا أنحني وأمنح الأعين الخضراء ابتسامة مواسية، وأعود فأسحب من حقيبتي شيئًا يمكن أن يمسح المطر الساقط على كتفيها. حين استدرت

شعرت بهول أنها زوجته، فنهضت تاركة رِجلي في عريها البردان، ورحتُ عند أقدام دهشتها أنظِّف سترتها وأصفِّف برعشات يدي شعرها الهارب في كل الاتجاهات.

"أنت امرأة جميلة لا بد أن زوجك محظوظ للغاية.."، ضحكت وهي تغلق عينيها على شيء حارق تُخفيه، وردَّتْ "أنت ودودة للغاية.."، وذكرتْ الصغيرة وكنت أحفظ صورتها في قلبي "ابنتي الصغيرة ودودة مثلك تحب الغرباء "، نظرتُ للأعين الخضراء من زاوية حادة وكانت مشغولة في شئ ما ورجعت أقول "كل صغيرة جميلة حتى تكبر، فتتبدل عليها كل الصفات وتنسى الجمال.."، مدَّت يدها إلى كتابيّ وتحدثت "تبدين كاتبة أو قارئة جيدة حد الكتابة، وتبدين أيضًا بشكل ما مخذولة"، كنت سأقول "مثلك" لكني كنت منشغلة بالبحث عن الأعين الخضراء التي اختفت للتو من مجال رؤيتي وعن كذبة مُنطقة تخص الكتابة "لا أحب الكتابة." وأكملتُ" يُرضيني أن أقرأ كتابك، لكني لن أستطيع حضور احتفال الليلة"، وأكملتُ كما لو أنها سألتني لمَ أن "كثرة الوجوه في الليالي الحافلة يُربكني.."، تركت علامة لها كي تبدأ " ربما لأن لا أحد يؤنسك، ويشاركك الوحدة.. "لا أحد يشارك في الوحدة لو كان الوجود حقيقيًا لذهبت الوحدة لوحدها إلى الجحيم"، اصطفيتُ مقعدًا آخر على طرف كي أشاهد جريان ما بيننا بشكل آخر فاحتجبتُ تمامًا عن

الأعين الخضراء، وجلستُ أحرك يدي على الرجليّن كي تجف لهفتهما المرتجفة وأنا أفكر أنها ربما أجمل مني، أجمل مني بكثير.

"حين تتزوجين تتعلمين أن تفسري الأشياء بسبل مختلفة.. "ربما هذه غرامة تدفعينها كي لا تقرأي فرجينيا وولف وحدك، وستقرأينها وحيدة.. كانت عيني غامت وعدت أنظر لأنف فرجينيا وأفكر أنه منحوت كما لتمثال وأسترخي في المقعد كيما أتحدث أكثر للداخل، قالت "هذا الهوس بالآخرين سيخف لمَّا يصير لك زوج وأبناء.."، اندلعت رعشات متتالية من رِجليّ وعرفت أن البرد يجابهما كما لو أني عارية تمامًا، قلت بمرار وأنا أختار النظر للنافذة "كاتب أيضًا ؟"، "نعم له شهرة أعظم من التي لدي لأنه يكتب في الصحف وأنا أحب ذلك." ثم سألتني وكنتُ تركت رِجليّ للبرد كليًا "أتقرأينه؟"، مَن سواي قرأه، أنا التي ترد على اسمه المنطوق الآن بزهد العينين وزهد المحبة، سكت وأنا أغمض عيني وأكذب أن لا، "توقفتُ عن قراءة الصحف كلها، إنهم متهافتون"

"ستحبين كتاباته ستحبينه جدًا في الواقع." وابتسمتُ. أحافظ على الابتسامة في وجهي وأنا أقول لنفسي أن ما بيننا انتهى وهذه المرأة ليست مخدوعة جدًا، ويبريني الذنب فأبتسم مرات بشكل متوالٍ وأقرر أن أكتب أني أبتسم، وأراها وهي تشرب القهوة وتتنفس بهدوء امرأة منحوتة كما لو لتمثال وفي لحظة أراني على حافة البكاء وأنشد لها

قول أنسي الحاج "وتستحقين أن يضرم حبيبك النار في جسده.. وتنجدني حين تشج صمتنا بصوتها الضام وتقول غير مصدقة وعيناها تسدلان ستائر خفيفة على أثر لذة القهوة "لا أنتِ كاتبة!" وأقول "لا ..لكن أحب فرجينيا وولف وقصص الأطفال.."، "مثل ماذا رشحي لي شيئًا لسارة.."، سارة كان يمكن أن تكون ابنتنا أيضًا. قلت وأنا أتذكر الأعين الخضراء وأتذكر مغيبها "ابتعدي عن روبسنون كروزو سيعلِّم سارة أن تحتل أجزاء الآخرين بلا إذنهم، سيُعلِّمها أن يكون كل أحد ملكها، ولن تمنح شيئًا"، كانت أعصاب يديّ تستشيط وحدقة عيني ترتجف وأنا أعرف أن مائدتنا على وشك أن تُرفع، "سأقول لها ذات يوم قابلت غريبة وكانت جميلة للغاية وطلبَتْ ألا تقرأي روبسنون كروزو ككل الأطفال.. ضحكت فضحكتُ وحملت كتاب "الأمير الصغير لأنطوان دو سانت إكزوبري وحيدًا وقلت "قولي لسارة أن الغريبة التي تحبك أهدتكِ هذا الكتاب.. وأمام تساؤلاتها فتحت الصفحة الأخيرة من الكتاب وقلت " كل المحبة لسارة الصغيرة. أريج الغريبة"، فشكرتني وقالت كما لو أنها تسألني "أنا امرأة سعيدة ؟ "، فأجبت بسرعة "جدًا يقول إكزوربي مَن سار في اتجاه وجهه لن يُبعد كثيرًا."

نهضت وتعانقنا وخشيتُ أن أبلِّل سترتها بخيبتي الفُجائية، تركتها ترتِّب أشياءها وأنا أحفظ ما وسعتني الذاكرة ملامحها وأقاوم رغبة حريق

أعصابي المتصاعد لضمها إلى روحي، كان فيها شيء منه، وكان عندي شيء له لم يزل. أسفت لأن المحبة جحظت من صدري، لأني لا أجيد الإخفاء، ككل الصغار، وأنا كبيرة بما يكفي كي أعذِّب الأعين الخضراء وأتجاهلها وأمارس معها هجرًا منظمًا كالذي مورس معي. سارت خطوات إلى خارج البوابة دون أن تدري أن عيني معلَّقتان بقدميها كأنما أود أن أرجوها غفرانًا لمحبتي، ورفعتُ عنقي وأنا أشعر بثقله وخفة رأسي، كان يمكن للعنق أن يفارق أيضًا، وعدت لفرجينيا وولف فخطفني من جديد تأمل أنفها ومررت على عنوان كتابها مرات "غرفة تخص المرء وحده" وأنا أدلك رجليَّ وأقول أن شعوري بالبرد زائد لأني أود لو أنام، ونهضت ولم أستطع أن ألف عنقي لصاحب الأعين الخضراء لأنه قد تيبَّس جدًا وفهمت أن الخلايا الخشبية في العينين ربما تسرَّبت إليه من فرط البرودة، وقلت بصوت مسموع أني أفتقد صاحب العيون الخضراء أفتقده للغاية، وأني لهذا ربما كتبت .. فقط.

يسوعنا

الخائب هو الذي يفرّط والغائب أبدًا لا يعود.

أمرُّ، كي إليه أصل، بممر كان يومًا لنا، أتطهر في سعيي إليه من سوادي، وأتذكر كيف ذات يوم آخر جرُّوني جرًا إلى بعيد، لأن غضبته لم تكن رحيمة، وكيف أطلب أن تكون، وصارت غضبتهم غضبته حين أصبح لهم، مُلك ومأوى.. في السير تدهشني التدابير، والمقادير، يدهشني انكسارنا أمام كل شيء، وبلاهتنا حول هذه الأكاذيب التي تصنع جبروتنا، أسألني بلوعة متى يُخلّصنا.. إن كان ثمَّة خلاص، وكون، ولوعة.

في الأزمان التي ظنناها قوتنا، وكانت خِذلانًا، وقفنا أمام بوابة البيت يا بيت، بوابتك حيث الدخول، حيث الخروج أيضًا، والتشرد، قبضنا أثمانًا وأنت ناظر، لم نستحِ، ولا شَرَخَنا في الفراغ الكبير، زلزالك. نحن الجيل العاشر، أو الألف، لا نستحي، لأننا لا نحب، ولا نموت لأننا لا نحيا. وُزعت بيننا مغانمك، خُسرانك، وضحكنا كثيرًا، ونحن ننتظر أن تحِل لنا السماء، ورب السماء، فقط لأن المال كان وفيرًا جدًا، متوحشًا جدًا.

أَكَلَنا المال يا بيت. سأردِّد له وأنا أقعد قدَّامه، وأمد رجليّ لأن لا شيء لي آخر يُمَد، لا صوت، ولا أمل. وأقول لك عن غربتي، وندمي، والحسرة التي تأكل كليتيّ، والدم لا يترك فيّ خلية لا ينحبس فيها. أقول ربما أنني أحتضر يا بيت وسأُدفن ذات يوم قريب، في أرض

غريبة، كما عشت غريبة، وحين ستبتسم لأنك أنت أيضًا غريب، ولأن كان دانيًا لنا أن نموت في صدرك، فلا نموت جدًا، كما فعل الأجداد، أو أحدثت أنت للأجداد سأعض شفتي السفلى، وسيروقني مذاق الدم، الذي لن يخرج، دمي.

حين ببطء أُحرِّك، رِجلي من درجة إلى درجة، كي أعتمر قمتك على الجبين، وأصعد إلى روحك، حين بموات أفعل، وبألم كثير، ونزف أكثر، سأذكر، أيام طفولتنا كلنا، ولهونا الصغير، ومداعاباتك الرائعة، سأذكر حين نزفت أنوثتي للمرة الأولى، بغنج، لأنها كبرت فيك، سأذكر كيف تبسمت لأني أنا أصير مكتملة في رحمك. كما اكتملت إناثك كلهن، كما لرب، لأب، حبيب، كنت تُعمِّدهن، وتحلم بزفافهن، وبرقصهن العاري، مغترّين باستداراتهن، وبنهودهن المُتطلِّعة. أتدري يا بيت كم أنت جميل، وجليل، وأن بالإمكان أن تخلّصنا.

لا أكثر من الموت في صدرك يا بيت.

حين سأذكر، وأكون في ضم البكاء، الذي لا يفيد، ولا يعيد ما ولّى، وأخجل منك وأستحي، وأدير لوجعك ظهري، وأقول إني أشرب قهوة، وأنت تفهم أني لا أحب القهوة، وأني أراوغ الوجع كي لا يسكن بي في مواجهتك، وأنه بالأخير يسكن، وأني سأسكت وجسدي الورقة يرتجف، لأنه يقامر على ضمك له، على سماحتك، على جنانك.

أنا المنبوذة من سعتك، أذكر، وأنا أخطط كيف أصعد هذه الدرجة، كيف حكوا لنا في أساطيرك عن يوم، قرَّر أحدهم، قديمًا أن يبيعك، أراك تذهب عني، وأنت تُكمّل سيرتك المفضلة، أنصت جيدًا للزمن الذي صارت فيه عدوىٰ خِذلانك بين قومك طعامهم، يوم أتوا بالشاري، المحتل، واتفقوا علىٰ ثمنك، حين حرَّكت ترابك، فخرجت الأجساد المقبورة خلفهم تسعىٰ، كيف زحفت الأحياء المجاورة، ساكنيها، وبيوتها، زحفًا من الرعب، والسقم، كنت غاضبًا حاسمًا، لكنك في الزمن الأخير، ابتسمت، وطغىٰ ودك.

هذه الدرجة المُهشَّمة بالذات، التي ما عادت لي، تذكر لي كيف، بهلع كنت أسمع أسطورتك من الكبار، وأعرف بطشك، لم تُرِد الفراق، قرَّرت، أعدتهم لأضلعك خاشعين، مسبِّحين، مستغفرين، متعهدين عدم العودة، الدرجة تُشممني رائحة خوفي الغريزي لحظتها، الذي لم يعلمني كيف لا ينبغي أن أفرِّط، كما فرَّطت.. حين قالوا ببيعك يا بيت، ظننت أن غضبة مماثلة يمكن أن تُصحِّي المقبورين، كي يحاربوا ويستردوك منّا، أقول إني انتظرت أن ينزاح التراب ثانية، مع أن الأشياء الساحرة لا تقع مرتين أبدًا.

حياتنا كذبة، كطعم القهوة، كمحبتي لها، كالرائحة التي تفوقها بهاءً، كالدم الذي توقف عن تنزيفي في الشباب كمدًا عليك، عن دوراني بين الأطباء، فقط كي ينزل كما يحدث للإناث، كما كان يحدث

للإناث على أرضك، حتى دمي عصاني، وصيَّر حالتي نادرة، بجسد منتفخ بالوجع بالإثم.. يا بيتنا، كان يمكن للدنيا أن تصير أجمل، أن تكون ملساء على غربتنا ، كان يمكن أن تصلّح اعوجاجنا من غير أن تقصمنا.. تذكِّرني الآن رائحة القهوة الأليفة، بالشتاء، ومطرك حين تحن ويرق قلبك لنا.

سأحزن أكثر وأنا أعلم أن قلبك، خلّى سبيلنا يوم البيع، وسأسألك أهذا بِعنا، أم أنك بعتنا، حين تركتنا نرحل، ولم تثأر منّا، بإحضارنا، وإفزاعنا. وحين لا تُجيب كما هي عادتك، وأخفي بيدي الغليظة جدًا، وجهي الذي ليس وجهي، وأنشد العودة إليك، سيُذكِّرني الظلام بظلام حضورك في منامي، أحلمك، أحلم أني فيك، بأركان مظلمة، كيلا يُصحِّي النور ألمي ، وأقول لو أن النور يجيء كي يتبدَّد المنام فأتبدَّد.. أود لو أحلمك كاملاً منيرًا، طربًا، أود لو تبشِّرني بقرب هطول المطر، قرب نزيفي المنعتق.

أحب الصعود، وتسلق الدرج، بجسدي البشع، لأن الوصول سيكون إليك، ولأني أدري أنك ستغفر، تصدقني.. وأنا أيضًا، أصدِّق أن خلاصك آتٍ، ربما لا توقظ الموتى، لكن بالإمكان أن توقظ الأحياء، كما بإمكاني أن أحب القهوة. أنتظر خلاصك، وانعتاقي.. سأختار أن أرتاح قليلاً على هذه الدرجة التي لا أستحي سرقتها من الآخرين الذين يرفضون وجودي عليها، إنها لي، كما لم تكن قهوة

قومي الذين فرّوا منك لي حبيبة، أحب أن أحبها، لأنهم كانوا يشربونها فيك، سأنام كي لا يكون بإمكان أصحابك الجدد أن يجرُّوني إلى فراقك، إلى طريق لا يمكن أن يستوعب جسدي الأزرق، ولا نومي الذي يتوسل منك أمنيته، سأنام كي تُؤنِس وحدتي الأزلية بوجعك.. في المنام سأضع وردًا كثيرًا على بوابتك، وسأنسى أننا بِعناك.. سأنسى إلى الأبد.

كما الفيلم

إلى روح "أحلى الأوقات"

تحت شمس تكشف وجهها بسفور، وحضور ذرَّات قليلة صغيرة متطايرة من الأوكسجين الشحيح، كان يتحرَّك، بجسده الطويل الذي صار عليه الآن انحناءة مُرَّكبة في الوسط تمامًا، إلى حيث الجانب الآخر.. الجانب الآخر من الطريق.

رأته.. فنادت:

-أستاذ محمد.

أفزعها أن يعبر من غير سلام، ربما لأنها تدري أنه في كل شيء، كان دائمًا، أسرع مما ينبغي.. في اللحظة الأخيرة توقف، جابه وجهها الذي كان على انخفاض عميق من وجهه.

توقف لثوانٍ يترقَّب..

ثم تذكَّر:

-أهلاً أهلاً.

خرج صوته من أيام بعيدة، ومن ذاكرة غائرة بالليالي الطويلة السعيدة، أيام كان يمكن لليالي الطويلة أن تكون سعيدة.. أخذت تتَّبع قطرات العرق الكثيرة فوق جبهته، هذه إحداها تسير طريقها بلامبالاة إلى أنفه ذلك الكبير، الشاذ في الوجه الجاف.

لم يكن يشبه الأستاذ عبد السلام في أي شيء، ولا كانت هي قريبة من سلمى أيضًا.

-أنتِ.. أنتِ صرتِ..

تبسمت.. وهو حائر في اختيار كلماته، كان يحرِّك كفيه وأصابعه، كما كان يحركّهما فيما مضى، ذلك البعيد، القريب الذي مضى، وتحفظه.. تحفظه كما لو كان الأستاذ عبد السلام.. كما لو كانت تحبه.

-صرتِ شيئًا جديدًا جدًا.

أراد أن يقول صرتِ أنثى، تفهَّمت نظراته المُلقاة على جسدها، كما نظرات أستاذ لكشكول تلميذه.. استعادت الأستاذ عبد السلام، وهو يقولها أيضًا، لسلمى "صرتِ أنثى ناضجة" كم عمر كان يجب أن تحيا كي تكون سلمى التي أحبها عبد السلام.

فقط كُن الأستاذ عبد السلام.

- نعم تغيرت كما تغير كل شئ.

أليس أن هو الآخر تغيَّر، ربما ليس كثيرا، لكنه فعل. لقد صار أشقى، وشت به انحناءته، عيناه المتزيِّدتان ذبولاً، الدانيتان من أفول قريب.

لقد تغيَّر.. لكنه لم يصبح الأستاذ عبد السلام.

سألها عن أحوالهم، وأحوالها، فأجابت وهو يسمع مُتململاً.. إنه يحسب الثواني التي تفوت دون أن يدفع ثمنها أحد.

هي أيضًا صاحبة عُمر لا يدفع ثمنه أحد.. كان صدره يعلو ويهبط، كي يتنفس، مثلما يفعل الكل، مثلما تفعل هي، هي التي تتضوَّر الآن تساؤلاً لِمَ لم تحبه.

لم يكن ليخذلها، أو كان ليفعل.

-أنا مضطر للاستئذان .. مرتبط بالتزام هناك.

ذهبت عيناها إلى حيث يشير.

-نعم نعم.. لكن أنا سعيدة برؤياك.

-وأنا أيضًا.

ذهب الذي لا يفهم، كيف كانت سعادتها به، هي التي لم تحبه، إنما أحبت الأستاذ عبد السلام، كانت تبحث عن أسباب منطقية لامتناعها عن الوقوع في حبه، كان جميلاً عبد السلام، جميلاً وفريدًا، وكان يمكن أن تضمه آخر الليل ليرتاح فوق نهديها الساكنين، كان يمكن أن يحيها ملمسه، بشرته، هذا الخجل السائل على خده، كان يمكن أن تقول له أنها تحب اسم سلمى، لأنه لم يكن يومًا اسمها.

انتبهت على سفور الشمس، التي ما كان لها وجه صديق إلا الآن. استدارت. وأكملت خُطاها إلى حيث الجانب الآخر.. الجانب الآخر من الطريق، مُنتشية بلذة الضم.

الأزرق الذي .. يجتبينا

يا الطريق كُن بردًا وسلامًا على الغرباء.. نحن الذين نلتقي من غير موعد، فنُحيل وقتنا قصة، نخلّي سبيل كمدنا بقرائتها.. نحن الذين نلتقي كي نؤجل افتراقنا أيامًا، وربما فقط ساعات. كيما ننسى وحدتنا، ونبرهن على صلابة عودنا، ذلك الذي بعثرته الريح مرات، ولم يعد يصلح لشيء ولا حتى للرتق.

نحن الذين نتعارف الآن، بلسانين مختلفين، وغريبين، باسمين نشاز، لا لغة مشتركة بينهما إلا الجسد، ورنّة صوت لا تدَّعي المهابة ولا الصبر. تصير أنثانا صاحبة الأعين السوداء آري، بالتقريب، ويصير ذكرنا صاحب الأعين الزرقاء نوح، بالتقريب أيضًا. لأن نوحنا بدا مخلوقًا كي يحمل سفينتا التائهة إلى جبل يعصم، ولو كان تخييلاً. نحن، نسير كما لُمتحابين، مع أننا غرباء.. ومع أننا نعلم أن الأعين الزرقاء لا تستطيب السوداء، تستطيب أعيننا أُخراها، وتنسكب في مساماتها الوجِلة، كما لو أنها يمكن أن تستريح مرة في ميناء قديم.. مهجور.

إذ نسير، متعانقة أكفنا، مرتعشة، تمسِّد الأعين الزرقاء المساحات الشاسعة حولنا، ببهائها، وبنقائها المتسامي، إذ نسير وضحكنا يتحدث، وتنهدات صمتنا تتعالى. يصبح الكون جميلاً قابلاً للعناق، الحب.. وصالحًا لشيء آخر غير أحزاننا المكدَّسة بأرق، واستسلام في خزَّانات صدورنا.

نسير وعلى مبعدة قصيرة منّا، ينطلق رصاص كثيف.. وخوف هائج، وصياح فزع. وملك موت يقود برجال شرطته أعمال خنق الخصوم، الذين يشبوهننا كثيرًا، من غير أعين زرقاء. يقوم بذلك مُعتمِدًا على الرصاص، الخوف، والفزع. لكن نوح الذي معنا، لم يزل بأعينه الزرقاء قادرًا على عتقنا من المرض، والوهم، قادرًا على منحنا فترة أطول للنوم الطفولي الهانئ على صدر ذلك الغريب الذي نقول له الوطن.

الوطن ليس وطن نوح، إنه وطن آري.. لذا هو يعني أنثانا فقط، لكنه لا يعنيها حد التخلّي عن لمسات الأعين الزرقاء على عمودها الفقري، ولا يعنيها بالشكل الذي يُبقي شرخ الروح، صامتًا، ومولعًا بالرقاد خلف الجدران كما كان يفعل دائبًا كل آخر ليل. هو اليوم يغادر جداره، البارد، إلى الأزرق الحي. وحين نشتهيه، نقول في أعماقنا، لأن آخرنا لن يفهم كلمتنا، أننا نود أن ننام لليلة متلاحمين، بالفرح، مستنصرين بالنزق.. وأن ليلنا يمكن أن يمرَّ من دون أن يُحيِّنا بعتماته.

نسير، آري ونوح، إلى حيث بعيد عن الرصاص، بعيد عن ملك الموت، وشرطته الغبية، وأسلحته المنتصبة، يطمئنّا جنوننا، أن لن يعثر علينا؛ فنصعد الدرج، ونحن في رؤوسنا، نُقلّب صناديق صبانا، عن لعبة قديمة مشتركة بين الأزرق والأسود، يمكن أن نلهوها على الدرجات، قبل أن نكبر ونتوالج فنشبع شبابنا النازف دفئًا، ونشوة.

نقصد الغرفة المربَّعة، هذا الفضاء الذي بضيقه يتسع لنا، نفكر أن العُمر ليس طويلاً جدًا كي ننتقي، وأن الضم ليس ماكرًا جدًا كي ينسانا.. نلثم بشفتينا، شفتينا، ويلتصق الصدر بالصدر، وتدخل الساق جيب الساق، وتُشعل الرئة أوراق أشجارها كلها، دُفعة واحدة، كي تلاحق انصهاراتنا.

نشتري رضانا، بهذه الحروف المُفتَّتة، ربما لن تكون آري سوىٰ "ري"، وفي الشهقة المنحدرة من بعيد الميلاد، يمكن أن تكون "إي"، وربما أن الجذوة ستخرج ألفها وحيدة بالكثير من الأنات "أيه" نوحنا يستحيل "نوه"، وبالخفقات المتتالية سيكون "هوه"، ثم ستمتد الهاء مع امتداد القامة، والعنق إلىٰ "هاه"

لحظة تُعلِّمنا أجسادنا، التقبيل. ونرىٰ بآري أعين نوح الزرقاء جدًا، حين نتمنىٰ، لو أنه يمكن أن نضاجع بحدقاتنا أيضًا، حين نكون إلىٰ عبور، سينكسر شيء في لهفتنا، وآذاننا تنصت لملك الموت، وهو يفتح علينا الأبواب، من أربع جهات، وسنتوقف وننفصل ونحن نطالع وجهه علىٰ كل الحيطان، مُعلَّقًا بين كل السماوات، نحن أيضًا ستسقط سماواتنا، ستخذلنا وهي تتفرَّج علىٰ شرود اكتمالنا قبل الثانية الأخيرة.. الآن نرىٰ أنفسنا عاريين من كل شئ أمامه، و سيباغتنا كثيرًا المظهر غير المهذب لعوراتنا.

تبكي آري كالأطفال، وهي تُدقِّق في وجهه الظاهر من كل مكان، الفم المعوج الموارب على لعاب حبيس، اللحية الخبيثة المناورة ذات اللاألوان، الجفن المائل أكثر على الدائرة اليمنى، غول أعور لا يعرف التخمين، والصوت الصوت المتقيئ غثاءً غثاءً. سيقول ملك الموت لها أشياءً وسيكرِّرها دون أن تفهم آري أو يفهم نوح، وسيصير الرصاص المُنهمِر في الخارج سياط تهديد، يقدم جحيمه بلا عروض مُرغبّة في الجنة. وستبكي آري أكثر وهي تتحسَّس جسدها يقف كواحد كسير واحد أسير مفرد وأوحد.

لو أنه لم يجئ الآن باسطًا شره، لكانا معًا غائبين متماثلين في شذوذهما وغربتهما، لو أنه لم يجئ الآن، ما كانت تكون اللغة سدًا منيعًا بينهما، يدريان الآن أن أحدهما لا يفهم أحدهما، يوقنان أن لن يحدث ذلك أبدًا، كم هما غريبان، متباعدان، كم هما هما، فقط هما. ما القريب.. سوى الرصاص في الخارج، ووجه ملك الموت، والجثث المتراصة بلامبالاة، التي سبقت إلى سماء لا يعود الإيمان بعدلها الآن يقينًا.. لو أنه لم يجيء.

لكن ماذا يكون الموت إن كان. أسيكون أكثر مواتًا من الحياة. هكذا ستنطق العيون الزرقاء، وكذا تتلقفها العيون السوداء التي تود الآن أن تصدق فقط أن تصدق، لن يقول الأزرق أكثر لأنه سيتحرك وسيمارس الاحتواء علنًا لأنثانا. سيتداخلان بتسليم،

وسيلهثان بعنف وهما يتضاربان، ويزرعان جذورهما في عمق جذور بعض.. مرات عديدة بقوة وبلا خوف، لأنها ربما تكون السعادة الأخيرة والوحيدة لهما، أمام ملك الموت.

يحدث أن نتعالى، ألا نفيق، أن نروح في مكان جديد، آخر.. الآخر، يتخلص كل ذي حِمل من حِمله، يطأ أرضًا جديدة، لا يعود الجزع فيها ممكنًا.. ولا الألم، نرتفع ولا يهم، حتى يصبح وجه ملك الموت صغيرًا، ضئيلاً جدًا. نراه يبتسم ناظرًا للجثث، حصاده بزهو، وهو كفيف لا يفهم أن الموجة الزرقاء العظيمة تحث سيرها إليه، نراها بوضوح من علٍ، هي لن تُنجيه، نبتسم نحن أيضًا لأن موجتنا رائقة، اجتبتنا، نصرت كل المخذول فينا، وبالأخير سنسعد وآرينا تضع رأسها على صدر نوحنا، وسنقول بصوت أكثر صفاءً من كل ما كان من قبل، في البدء كان الضم.

فجائع النسيان

"كان يكون مريحًا لو

قصيدة أخاف أن أعرف.

أنسي الحاج.

"لا تقاتلي من أجل أشياء لا تقاتل من أجلكِ..

إن أحبتكِ كانت أتتكِ"

الوصايا المنسية، النص الأول.

عيناه نيران، تُحرِّقان كل ما فيها، حتىٰ نارها.

يوم اشتعلت به تعلمت أن تُعلِّق رأسها بالسماء، رأت ذلك سموًا، مع أنه ديباجات شنق كان، يوم تعلَّقت رأسها بالسماء ما شاهدت نجومًا ولا شُهبًا.. فقط تعثرت وسقطت بالحُفرات

(كان ينبغي أن أحبَك لأتعلم كيف أصير أنثىٰ)..

تشتهيه، تشتهيه كما لا تشتهي بشرًا، ويشتهيها كما يشتهي كل الإناث.

عيناه نيران.

ونيرانه لا تُدفِيء، لا تُعطي، لا تَشبع.

(قلبي قربان حب لأجلك).

والقرابين، لا تشفع للعشاق.

تقاتل من أجله، ويبعثر قتالها في الفضاء.

(سيحبني.. سيحبني).

أقدارهما لا تلتقيان، فقط تبغيان على جسدها الصغير، إن لها أملاً يولد كل صباح في اللقاء، ولا يموت مع موات الروح في الليل، ربما ستعد آمالها الحية يومًا، فتهلك قبل تمام الإحصاء.

(كنت أخرق روحي المُهلهلة أصلا، بخصلات شعر رأسي السليبة ، تلك التي طلبت أن أتركها لك، كعلامات طريق إليّ، مع ذلك ضلَّلتني، وما أتيت).

يوم خُتمت قصتها مع النار، ماتت فيها نيرانها..

ظلَّت تردِّد (برئِتُ منه.. برئِتُ منه).

مع أن رأسها لا تزال مشنوقة بحبال مشدودة إلى السماء، وقلبها يدور من صليب إلى صليب.

ويوم قالت (كففت عن مراودتك في مناماتي، لأني فطنتُ أن المنام .. منام)، كذبت لأنها تدري أن ما عاد لها غير المنام مأوى للانتظار.

كانت تقاتل من أجله.. وهو يبعثر قتالها في الفضاء..

كانت تآنس بآمال فيه، لا تذوب.. لا تنتصر.

(سيحبني.. سيأتي).

الغياب أن تكوني ولا تكوني.

الوصايا المنسيّة، النص الثاني.

بين العالمين.. منام.

الذين تراهم في مناماتها كُثر، والذين لهم بها قرابات منهم أكثر، أي خيوط تشدُّها إليهم، لو فقط تتذكر.. الجدران التي تحيا بينها هناك ليست كجدرانها الأخرىٰ.

ثمَّة أزمان صغيرة بين الغياب والحضور، فيما يشبه المنام، تتبدَّىٰ لها فيها كل الحقائق، فتحتل قلبها جيوش اللوعات، لكن أي حقائق تلك.

وأي لوعات.

ولِمَ بهذه البساطة تنسىٰ. تلك أشياء لا تود أن تنساها، فتنساها، والذين تشتهي نسيانهم، يمكثون.

لِمَ بهذه البساطة تنسىٰ، وكل قرابتها بالكون، قرابتها بهم..

(أنتمي لهم أكثر مما أنتمي إليّ، ربما يكونون هم الصحو وهذا الكلام منام، سأرضى يوم يأتي فأبقىٰ لديهم ولا أرجع إليّ..)

والنور يقترب من بعيد يقترب، ومعه حسرة تقترب ثم..

(كان الصبح.. كما يكون كل يوم).

وبالماء تُرمِّدين النار..و بالماء تصعدين الجبل..

الوصايا المنسيّة، النص الثالث..

***

الجبل ذلك البعيد المُشتهى..

لأن البعيد دومًا مُشتهَى..

(بإمكاني الوصول إلى قمته، والتلويح لهم من علٍ، بإمكاني إنه ليس وهمًا)

بُوصلتها تشير إلى المُشتهى، وبمقدروها الوصول.. لكن الأكتاف التي أهانتها في الطريق تتزايد، والأرجل التي لا تدري لها عمل غير الركل تتكاثر، ثم أن الجبل بعيد، بعيد.. والطريق طويل إلى المُشتهى.

(تعلمتُ القتال، لأن الوصول إليه ليس يسير ..)

القتال لم يكن يومًا كل شيء.

كان ثمَّة جبل خلف المُشتهى، أبهى وأروع، كانت القمة فيه تشبهها أكثر، لكنه لن يكون مُشتهَى.

(في الطريق يناديني الآخر.. بجاذبيته كان يسحبني إليه، لكني أُجافيه، لِمَ تعلمت القتال إذن.. إنني أشتهى الآخر..)

أمام السقوط الأول، والانكسار الأول، تعلمت ألا تُبالي، أو هكذا أن تبدو على الأقل، أجادت التبدي بأخريات، أجادت نهب ذاتها، لأجل خاطر المُشتهى.

إلى أن

(كان يوم أضعتُ فيه ملامحي كلها، حتى أن يدي هذه صارت تلك، كأنها قطعة من أخرى، أو أني أنا أخرى..هكذا ضللت أو ضُللت.. لكن الطريق إلى المُشتهى ..ما زال).

تتوقف كثيرًا قدَّام حيرتها، إن ذهبت هي فمَن تلك التي تبتغي المُشتهى.

عقارب ساعتها وحدها تدور إلى الوراء.

(هكذا خُلقَت).

في الطريق إلى المُشتهى، والناس شهود، يهوى الطريق فجأة، فتصير فجوة، كانت تشبه تلك التي نشبت في ذاتها.

(أموت لأني لم أصل).

"بل تموتِ إن تصلين..

هكذا قال لها القريب في المنام، كهاتف جاء، يرعبها، لم تفهم الإشارة، لأن العُمر انسكب في البحث عن طريق لا يهوى بها،

والناس شهود.. في البحث عن يد، تشبهها، يد تملكها، ليست لأخرىٰ.

لأن البعيد دومًا مُشتهَىٰ.

(سأموت لأني لا أصِل..)

بالماء يصيرُ كل شيء حيًّا.

الوصايا المنسيّة، النص الرابع..

(تبدو في أحلامي أجمل من الأحلام، وجهها ضياء، عيناها ود، وخصلات شعرها جدائل ماء، كانت أجمل من أن تُحكىٰ.. أو أن تُكتَب.)

تدور الأرض، ومعها العمر يدور، علامة دورانه، كف لا يصير ملمسه كما كان والقريب يُمسي قريب من دون "ال" والمنام يتسع، يتسع حتىٰ يصبح مجرَّة.

(في مجرَّتي كنت أراها، أسميتها.. سيدة الماء.)

سيدة الماء، ليست كأي سيدة، دائمًا، مجلسها انكباب علىٰ ورق، وعلىٰ أحلام، ترسم حروفها بخصلات رأسها، وبشفافية جسد هائم،

لا يلامس الأرض ولا يخاصمها، بياضها أُشتق منه البياض، وماؤها كان أصل الماء.

(تحوَّل الماء أيامًا لبحار أغرقتني.. وأيامًا لأمطار أطفأت ظمأي.)

لكن "قريب" كان يردِّد لها أن البحار، لم تبعثها سيدة الماء، ربما كان أصلها نار تبتغي حرق هذا الصغير الخافق في صدرها.

(أصدق قريب لأن لسيدة الماء تبسُّم، فيه شمس تسطع كاملة، وليس بإمكاني الإيمان أن الشمس تضرب ببحار مُغرِقة كتلك التي كانت تضرب سواحلي.)

لم تكن سيدة الماء فقط، كانت سيدة الهبة أيضًا، كانت تهبها، حكايات كثيرة، وشخوص عديدة، كانت عطاياها استثنائية، تنتظر فقط الذي يحوِّل الصباح لحبر يكتب به على ورق.

(فوَّتُ كل قصص سيدة الماء، فوَّتُ الكتابة كلها، رأيتُ أنها فعل تكميلي مع ذلك كنت أحار أي الأشياء كان ينبغي أن تكون الأساس، حتى تكون الكتابة تكميلها.. ثم استكفيتُ بحيرتي.)

ما كانت تملُّ سيدة الماء، فقط تحتفظ بمجلسها المُنكَّب تكتب الذي يترائى لها، كانوا في المجرَّة يسمونها سيدة الانكباب، لكثرة ما أخلصت جدائلها للورق.. ولفعل الكتابة.

(لم تتخلَ عني، بودها كانت تُؤنِّبني، لأني أترك النهر يذهب جفاءً، وما استحق النهر مني الجفاء. لما كان ملمس كفي يتغير أكثر، كنتُ أزهد الماء، وسيدة الماء أكثر، ما كان لي الخيرة، والشك يتسلل كل ليلة لوسادتي يهجس لي عن كينونة تلك الكف المتغيرة.. أكانت لي حقًا !!)

ظنّت أن وجودها دوامًا، ربما لأنها الوحيدة التي لم تذهب فيما ذهب الجميع، لكن القمر ذاته يمكن أن يذوب إن نحن أمسكّنا عن رؤياه.

(في بداية الغياب لم أكترث، الماء لا يغيب، وكل الأمر بضع منامات وتأوب).

لكن الغياب يُولّد غيابًا، والقمر كان يمكن أن يذوب.

جفت المجرة، وما عاد بإمكان قريب أن يشرح أو يفسِّر، اكتفى بحزنه، وبجزع خائف من ذوبان القمر.

(خِلتكِ ستأتين لكنكِ خذلتيني).

أما كان عليها أن تسأل مَن الذي خذل منَ؟

(..خذلتيني).

***

جسدها العجوز يتململ فوق فراش استحال كثير الاتساع عليها، مع ضمور الروح والقلب، اهترئت ذاكرة حسبتها يومًا لا تخيب، تنسى منامتها قبل الصحو، بعد المنام مباشرة. تنسى أن تُسائل الروح عن أحوالها، تنسى لأن النسيان صار كل أحوالها، لذا.. عندما يأتيها قريب هذه الليلة الأخيرة لها على الكوكب، ويخبرها بالفجيعة.. لن يكون لديها بكاء فتبكي ستنسى أن تألم، ستنسى كما نست كل شئ.

يلقِّنها قريب وهي في المنام الأخير آخر وصاياه.

"كان لكِ أن تعرفي الأشياء التي ستأتيك فتأتينها.

والأشياء التي تفارق فتفارقينها.

لكنكِ..

ستنسى أنها في آخر لوعاها قالت..

(لكني لأجل خاطر الفجيعة نسيتُ..

نسيتُ.. أني عرفتُ..)

2013 /3 /17

الضلع الناقص

إلى روح آرثر رامبو

الوقت غروب. كنا على وشك العناق، حين سحب ذراعيّه وانسحب، لم يعبأ بالحياة من حولنا، بهذا الشارع السيَّال السائر بنا أو بدوننا. بدا خصري ناقصا متحرِّكًا من مكانه المعتاد، كنت بحاجة لضمَّته، لكنه في اللحظة الأخيرة أُصيب بالسأم واستدار.

أفهم تقلبات حاله.. وأفكر وأنا على وضعي أنظر جهة الشمس وأشاهد القمر جوارها، يتدانيان، أن هذا الإيقاع الغرائبي الجميل كان يناسبنا تمامًا، العربات في النفق كانت ترجع بسرعة جهنمية إلى الخلف، والبناء العظيم الذي قضيت تحت ساعته العملاقة عمري لم يعد هناك، كأنه أصيب بسأم مماثل فأخذ الساعة واختفى.. كان سيبدو عاديًا لو عرفت أن الساعات كلها انقرضت ساعتها، لا لأن وقتنا توقف إنما بالضبط لأنه استمر.

محاولات الهرولة إلى ظهرك المصلوب على شيء لا أتبين كُنهه، لن تشي بأسرارنا السليبة لن تصرِّح بالبوح الذي مارسناه والحال مقلوب، لن تتكلم عن إباحيتنا أو عن أحاديثنا المملَّة حول النهايات التراجيدية للدراما اليونانية، أنت فقط تسير كأنما لا تستمع وتمارس غيابك بفم متبرِّم، أنا سأقول لك هذه النهايات عبثية وأقدارنا نحن صنعناها كما نصنع قهوتنا، بالصبر ذاته وقلة الصبر ذاته أيضًا. كنت سأقول لك لو أنك أكملت ضمِّي وتدانينا كما تفعل الآن الشمس ويفعل القمر، أن

عبثيتنا جزء من تركيبنا الشِّعري أنها محض خيال محض افتراء لا أقدار حقيقية تنتظرنا، كل شيء هزل، كل شيء هزل.

أنا كنت أحب أن أحصي فقرات عمودك الفقري وأنت تذهب، كي أسلي نفسي، كي لا أذكر أن البناء العظيم الذي قضيت تحت ساعته العملاقة عُمري، رحل، بالهدوء نفسه الذي ترحل الآن به. حين أنظر للشمس وأُجرِّدها من عناقها للقمر تعودني ذكرىٰ أمنية قديمة تائهة، كنت أحلم كل ليلة عيد ميلاد بأن أصير شاعرة، وفي اليوم التالي كنت أنسىٰ الأمنية وأنام مطمئنة لأن هناك من يكتبون الأدب بلا روح ويحصدون الجوائز.. أنا كانت روحي مصلوبة منذ قديم، قديم جدًا.

لنفترض أن إيغالك في التحرك إلىٰ المجهول سيأخذك إلىٰ داخل النفق، دعنا نتصور أن هناك احتمال لهبوطك النفق، إن السيارات ترجع كلها إلىٰ الوراء وبإمكانها أن تدهسك، وستعاني حينها الفقد مرَّتين، مرَّة لأنك هجرتني ومرَّة لأنك فقدت ذاتك. قُل لي ماذا دون الذات أو خارجها.. مَن سيعايدك في أيام أعياد الميلاد والأمنيات التائهة، مَن سيحمل لك القهوة في الصباحات الفاترة، مَن سيُصاب معك بالحزن والمرض والسأم والتبرم.. أعرف كنّا نحب الشعر لكنه لأسباب قدرية لم يحبنا، وكنا محكومين بخطيئة كتابته حتىٰ النهاية بالروح كلها ودون أن أن نحصد أيَّة جوائز.

على الأقل كان هناك أحد غير الموت ينتظرنا داخل النفق الذي يسير فيه الناس بالعكس، كنا الوحيدين اللذين بنشوة تامة لن يفزعا حين تغيب الشمس ويغيب القمر لأنهما يتضاجعان، كنا سنضحك ونتبادل كلمات بذيئة مُضفرة بالمحبة، وربما كنا أتممنا عناقنا دون أن تفارق، كنّا أكملنا القصيدة بالكثير من الصور الشِّعرية وحطَّمنا عبثية الأقدار ونحن نسيج أسوار زجاجية تحفظ عبثيتنا الخاصة. عوضًا عن كل ذلك الآن هذه الساعة تشير للغروب وأنا أعود برأسي إلى الوراء وأُعدِّل وضع روحي وخصري المعوجَّين، وفي اللحظة الأخيرة أقرر أن أبتسم وأفكر مثلك أن الفراق يبدو دائمًا جميلاً.. ومُشتهى.

لا تحب امرأة أخرى اسمها أريج

ونحن نرقص أمامهم، كن على يقين أنهم لا يروننا، المساحات البيضاء بيننا وبينهم، تعميهم، إنهم يرون الألوان كلها باستثناء الأبيض، فلا تقلق، ولا تُخيِّب ظن الروح التي تقف على أطراف أصابع قدميها كيما تتم هذه الرقصة.

انس الماضي السحيق بيننا، قتلوه، ولمْ يكد يعرفنا، لا تترك هذا الزمن يمر دون أن نسرق منه قُبلتنا. انظر هذه يداي ترتعشان لأنك معي، إن نور الغرفة ينسحب، الإضاءة تنسحب من عندهم، وتطلع القمرة علينا وحدنا وتشتعل الموسيقى المُفضلة لك، الطبيعة تتوافق كي تمر بأصابعك على عنقي الظمآن. أنا امرأة سعيدة جدًا وراضية، يقولون أن اسمي أريج، وأنا أصدقهم، لكن أظن أن لي اسمًا آخر نهائيًا لا يعرفه أحد.

ارقص أكثر، حوِّط قلبي بذراعيك، علِّمني التشيؤ في هذا الكون الخسيس، لنقل أن الحياة على وشك الانتهاء، وأن القيامة ستقوم، فلمَ لا نمارس تمرينًا عليها الآن. لا تنسحب قبل أن نشبع، وأن نأمن هذا الزمن المراوغ الذي يأتي من بعيد حاملاً الورد، سآخذ هذا الورد من عينيك ونحن نتقارب، ونمر من خلال ظلالنا، بشغف وأناة. أحبك جدًا لأني أستطيع في العتمة، ونحن نتلامس أن أقول je t'aime دون أن أحن لأننا سنفترق، ودون أن أبكي لأنني وحيدة، أنا امرأة سعيدة جدًا وراضية، وأحب اسمي لأن شفتيك تصبُّ العسل في

حلقي وأنت تنطقه، مَن علَّمك أن تقبل هكذا خبَّرني وأنا لن أحفظ الحكاية سأكتبها وأقول إنها درسًا جزلاً للمحبين.

هذه القمرة تبتسم لأننا عاشقان هاربان من آثار غارة مجنونة سقطت في الروح دون أن يدري أحد، عانقني كما ينبغي لمهووس ولا تنس أنهم يقولون عليّ شاذة، وغريبة، أظنك كنت تقول مثلهم، لا تجزع المهووسون يحبون بطريقة أفضل، والشواذ يمنحنون خُلاصتهم حين يمارسون الحب، هل وجدت امرأة غيري تمنح خُلاصتها وهي تحبك، القمرة تبتسم وهي تعرف أنني أشتهيك، وأنا أشتهيك وأبتسم لأنها تعرف. أيها المجنون اترك مجوننا ينفلت، ولا يُضنيك حضورهم، إنهم لا يبصرون، الغربان تنعق على محاجرهم من فرط فراغها، ونوارس صدرك تُعمِّد دمي، قل لي مَن زرع في عينيك كل هذا الفراغ، ومَن قال لك أني سأملؤه، هذه كذبة عظيمة.

لا تتحدث بسوء عن النساء لا تكن فظًا، ونحن نرقص على الأقل ونحن نرقص، حين ننتشي جاهر بكراهيتك، وأنا سأرفع صوتي وأقول je t'aime ، لنتضاجع ثانية حتى تختفي القمرة، ساعتها لن تختفي القمرة، وستخبرك كم أن الإناث جميلات وستشتهي أن تكون أنثى، ولن تجد من يحقق لك الرغبة.

حكايتان عن يوسف

(1)

قطة يوسف

يوم مطير وطريق ناعمة زَلِقّة. هذه البنت التي لا تطال قامتها خصري، تهرول بفزع خلف أم تسير بلا مبالاة وثبات على الأسفلت المُبلَّل، تتحرَّى الأم الرصيف وتسقط الصغيرة قبل العتبة المُخلِّصة.

يُرعبني سقوط البنت، لأنه يُنبيء باحتمال سقوطي أيضًا، ولأني لن أستطيع أن أمد لها يدًا لتقف، قامتها صغيرة وعمودي الفقري متيبس، لأن اليوم مطير والبرد قارس. هذه الغيام التي كنت أحبها تصير مُقبضة الآن دون أن أفهم بالضبط لِمَ. وأنا أنحدر مع الرصيف الهابط وأتهيب مواضع قدمي، يمكن أن أسقط مثل البنت، لكن سقطتي ستصير فضيحة لأني كبيرة بما يكفي لتفادي السقوط.

أسير بحذر متصاعد خوفًا من الدرج، أصعد وأنا أُلصق يدي بالحائط وأدفع جسدي إلى الأعلى لو استدرت الآن سقطت وستكون سقطتي على الرأس، وربما أفقد وعيي أو ذاتي. أتشبث بأمنية الوصول العزيزة وأقاوم، وفي اللحظة التي أقبض فيها على نَفَسٍ هارب تلوح أمامي قطة. روَّعتني، أشعلت خوفي الغريزي كله، مرة واحدة. أنا في المُتعرِّج بين طبقتين من الدرج، واحتمالات سقوطي مع هذه الطريق الزلقة تعظم، ليس السقوط فحسب، ربما ستقفز القطة على وجهي، ولو تراجعت ربما تهاجمني من الظهر.

أنا سقيمة يعتقلها خوفها. تتسع عيناها مع أنفاسي اللاهثة ويداي التي تشيحان بها أن تذهب، تُصدِر مواءها المُفزع لأنها أيضًا مفزوعة فتنقبض معدتي وأشعر أني حين أقيء عليها سينتهي الموقف كله. لكن هذا لا يحدث، أتحرَّىٰ برِجلي الدرجة الأقرب إلىٰ أسفل، وأتحرك ببطء فيما نقاط ماء كثيرة تتساقط من جبيني ومن كفي. تراها القطة وتنفعل أكثر، يصير جسدي خفيفًا جدًا يمارس الرقص مغصوبًا بحركات متتالية مرجوفة. تتقدم هي كلما ابتعدت، ورُكبتاي تخونانني بانتظام وتناوب بينهما.

تطل هالة يوسف بقامته الصغيرة التي لا تطال خصري، سمعت حفيف قدميه علىٰ الطريق الناعمة الزلقة، ورأيت روحه تحمل الغيام والمطر آتية تغوثني. يتمثل بهيًا فوق الدرجة التي تسجنني، يبتسم من أجلي ثم يكمل صعوده إلىٰ حيث القطة. حين تراه تهدأ فيأخذها بأمان بين ذراعيه الواسعتين. تسكت القطة تغمض جفنيّها وتستسلم؛ وهو يمسِّد جسدها كله ويُدفئها، يتمسَّد عمودي الفقري بالسلام ذاته يخلّي سبيله التيبس، وتجف نقاط الماء الكثيرة المُتسرِبة من جبهتي وكفيّ تدريجيًا.

أكمل بجسد مثقل بالخيبة إلىٰ حيث بابي آمنة من احتمالات السقوط والخوف؛ أولج مفتاحي، وأدلف، أجلس فوق المقعد القريب أتمثَّل حضور يوسف المُخلِص.. وأنتحب.

(2)

الأرق المريمي (من مكالمات يوسف)

يوسف أنا صرت حكاية يخوِّفون بها الأطفال من إثم المحبة، تصوَّر !

أحب وقت الغروب؛ أحبه لأنه قصير جدًا وذاهب. حين أتيت أشتري "أخبار الأدب" كالمعتاد، حاولت تفادي استطالات الأرض، واقتصاراتها، زلَّت قدمي أكثر من مرَّة، وكدت أسقط، وابتسمت في المرة الأخيرة بالذات لأن أعين البائع كانت تزدريني، ولم أكن أفهم لمَ تمنيت أن تبين مريم حينها وبانت.

أُحصي العملات المعدنية، عملة عملة، وأخشى أن تسقط إحداهم كما حدث مع جسدي، فيطردني البائع ويعلن فضيحتي على المشاع، وأنا أستدير لمحت مريم. أتت بمقعدها المتحرِّك، رِجلاها مغطيان بالشال وبالكمان. أتت أيضًا بابتسامتها وشعرها النائم على ذهنها بسلام. نسيت أرقي كله، وتكلمت بالهدوء الذي كنت أكالمها به كل مرة.

"أحب وقت الغروب؛ أحبه لأنه قصير جدًا وذاهب"

قالت "كنت أحب العزف في أوقات كتلك، لأنها أيضًا كانت قصيرة، قصيرة إلى حد أنها كانت تمضي دون أن يلحق بها أحد، وكانوا يتركونها في سبيل النوم، أو الضحك أو الحب". كان الكمان في يدها

يرتعش رعشة خفيفة أليفة، فكَّرت لو أعرض أن أحمله عنها حتى ينتهي الحديث، وحين وصل العرض لشفتي مات.

"اخترت الكمان لأنه كان صغير أيضًا، هو الأساس في الأوركسترا والحياة، وكان وحده يتحمل هزال ذراعيّ، وكانت تدهشه رجفتي"، سرنا في الطريق المتعرج، وأنا أرى وجهها في كل الاتجاهات وأفكر في أسئلة عظيمة تليق بالزمن الساحر المتسرِّب، وبقدميها الساكتتين تحت الشال، بدلاً من ذلك تحدَّث شيء داخلي عميق وجدتني أتكلم عن يوسف، وعن الحكايات المقصوصة عني التي كانت تؤذيني ولا أعيرها انتباهًا.

قلت "صرت حكاية يخوِّفون بها الأطفال من إثم المحبة، تصوَّري!"، شاهدت ابتسامتها تتسع بعرض الشارع للمرة الأولى، لامست نعومتها بأصابعي، ورأيتها تهتز هزَّات خفيفة وهي تموضع الكمان في وضع الكلام، وتتحدث من خلاله. خفت أول الأمر، خفت أن يرانا البائع ويزدريني، لكن الذروات التي كانت تحملنا من سماء لسماء أنستني البائع والشارع وحكايات الأطفال، أصبحت مؤهَّلة لكتابة الشعر أو النوتات الموسيقية لا يهم، صرت بصحة جيدة والعزف يبسط الأرض أمامي، دون أن أضطر لإخفاء أي شيء.

عرفت مريم بعد ذلك مرَّات، كانت تأتيني في أيام الأرق الكبير الذي لم يكن ينيمه شيء، صرت أشعر بالوحشة دونها، في كل المرَّات

التي كنت أشتري فيها أخبار الأدب، في الليالي الباردة كنت أتلفت بحثًا عنها، وأنا أحاول تدفئة هذا الشيء العميق المرتعش في عظمي. مريم جميلة يا يوسف، جميلة للغاية أحب أن تعرفها، وتعرفك، أحب أن تسمع عزفها بأذنك، العزف لا شيء ينقله يا يوسف، أعرف أنك ستتوثب مقعدها المتحرِّك، وأن ذراعك الصغيرة ستدعم رعشة يديها، وأنك ستذوق دهشة كمانها وهي تبتسم ساعة الغروب.

المحبة لا تخيف أحدًا يا يوسف أليس كذلك؟

هذه الكتابة مُهداة إلى

مُنى أمي، وجمال أبي .. أعز الأعزاء.

وإلى صفيَّة الروح.. سُميَّة يحيى رمضان.

المحتويات

حكاية اللوح الزجاجي الذي يطلع للبنت من المنام 5

الذين سلمُوا من كل شيء..... 13

المشَدَّ..... 19

مائدة واحدة للمحبة 27

يسوعنا..... 35

كما الفيلم..... 43

الأزرق الذي.. يجتبينا..... 49

فجائع النسيان..... 57

الضلع الناقص..... 69

لا تحب امرأة أخرى اسمها أريج 75

حكايتان عن يوسف..... 79

امتنان

لرفيقتي المؤمنة بدأب آية حسام.

الشاعر القريب عصام أبوزيد الذي دعم صدور هذا الكتاب.

لأساتذتي بالمعهد العالي للنقد الفني والأدبي، وبالأخص الفنان د. وليد شوشة، والفنانة د. ماجدة سعد الدين.

لـ "معهد جوتة الألماني بالقاهرة"، والأديب الحبيب عباس خضر، وزملائي بورشة قصص القاهرة القصيرة

الشاعر الشقيق الضوِّي محمد الضوِّي على قراءته المدهشة.

للفنانة الجميلة غادة خليفة.

ومن قبل ومن بعد إلى.. فعل الكتابة المُقدَّس.

للتواصل

Areejgamal2020@gmail.com